في ندوة الانسانيات

كيف عاد الاسلام ليصلح ما أفسده غيره في غرب افريقيا ؟!

د. عبد الله عبد الرازق

بعد ان انتشر الاسلام في غرب افريقيا وتمكن المسلمون من السيطرة على ممالكه الوثنية كمملكة غانا ، واقاموا دولا اسلامية كدولة صنغي وامبراطورية مالي ، اذا بالغزو المراكشي عام ١٥٩١ يدمر مدينة ، تمبكتو ، حاضرة الثقافة الاسلامية ويشرد علماءها ويجعل الاسلام غريبا في المنطقة حتى اوائل القرن التاسع عشر ليعلن مصلح اسلامي قيام حركة ، الاصلاح الفولاني ، هذا المصلح هو ، الشيخ عثمان بن فودي ، لكن من هم الفولانى ؟ وكيف وصلوا الى غرب افريقيا ؟ وماهي ملامح حركتهم الاصلاحية ؟ وماهي الاثار التي انتجتها هذه الحركة الاصلاحية في الحياة السياسية والثقافية بغرب افريقيا ؟

هذه التساؤلات وغيرها كثير حاول الدكتور عبد الله عبد الرزاق الاستاذ المساعد بقسم التاريخ الاجابة عليها في بحث تقدم به الى الندوة العلمية بكلية الانسانيات التي عقدت يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر ابريل .

وقد استهل الدكتور عبد الله عبد الرازق بحثه قائلا : ان قصة انتشار الدعوة الاسلامية في غرب افريقيا ما هي الا جزء من قصة الحضارة الاسلامية في كل مكان حيث خضعت الدعوة لنفس الظروف وتعرضت للمؤثرات الموجودة ، وحيث واجهت مشكلة الالتقاء الثقافي مع حضارات سائدة مثل الافريقية والمغربية ، وبعض التقاليد والعادات الموروثة في غرب القارة ، وكان على الدعوة الاسلامية ان تواجه كل هذا ، وان تدخل مراحل الفتح والتسرب ، ثم رد الفعل لهذه العملية ، والانتقال تدريجيا الى شعوب المنطقة ، وحتى تصل الى مرحلة الاندماج الكامل ، واخيرا السيادة والسيطرة على غيرها من ثقافات محلية ، وحضارات اقليمية .

ورغم انتشار الاسلام في القارة الافريقية في القرن الاول الهجري (السابع الميلادي) الا ان الدعوة تعرضت لموجات من التحدي من القوى المحلية والخارجية ، وكان الغزو المراكشي لغرب القارة اثره في تدمير الحضارة الاسلامية في مدينة تمبكتو في عام ١٥٩١م وكان هذا الغزو لايقل اثرا وتدميرا من الغزو المغولي لبغداد ١٢٥٨م حيث ادى غزو المراكشيين الى تشرد العلماء ، ومصادرة اموالهم ، والقضاء على مراكز الحضارة الاسلامية الزاهرة في مدن غرب القارة مثل تمبكتو ، وجني ، وجاو .

لكن صمدت الدعوة لهذا التحدي ، وكانت كالصخرة الصلدة التي واجهت هذه الموجة العاتية ، وامتصتها ، وخرجت منها اشد قوة وثباتا في مطلع القرن التاسع عشر عندما اعلن احد رجال الدين في شمال نيجيريا حركة الاصلاح الكبرى لاخماد البدعة واحياء السنة المحمدية .

فمن هو هذا الزعيم المسلم ؟ وماهي الظروف التي دعته الى اعلان حركته الجهادية ؟ وماهي الاثار التي افرزتها هذه الدعوة الاصلاحية ؟

ظهر الشيخ عثمان في امارة الهوسا في بيت علم وثقافة ، تربى تربية اسلامية خالصة على ايدي عدد كبير من العلماء والفقهاء ، وتفتح ذهنه على احوال هذا المجتمع فشاهد البدع والخرافات التي لاتمت للدين بصلة ، طاف بمناطق غرب القارة ساعيا للعلم والدراسة ، ولما اكتملت مداركه انتقل الى مرحلة نشر الدعوة الاسلامية ، وقام بالوعظ والارشاد ، واتصل بالحكام في هذه الامارات على امل ان يقيم تحالفا معهم لنشر الدعوة ، واتجه الى امير جوبير ، وبين له الحق والباطل ، وشرح اسس الدعوة الاسلامية الصحيحة ، وطلب منه العون لاحياء الدين ، واقامة العدل ، واستجاب له هذا الحاكم ويدعى باوا ، وعهد اليه بالفتوى والارشاد ، واخذ الشيخ ينشر الدين ويشرح اراءه الاصلاحية ، وبدا يحاور العلماء وينافر الفقهاء ، ويرد عليهم بالحجة والبرهان الساطع .

وكان الشيخ مولعا بالعلم والعمل معا حتى لقب بذي النورين - العلم والعمل - وظل هذا الولع يلازمه طوال حياته ، بل وصار الشيخ منتجع الرواد ، ورافع لواء العلم والدين ، فاحيا السنة وامات البدعة ، وقد وجد فيه العلماء خطرا عليهم ، فاكل الحقد قلوبهم ، وحاولوا الوقيعة بينه وبين الحاكم على اساس ان الشيخ يسعى لبناء مجتمع اسلامي .

وعندما تو في هذا الحاكم كانت نواة المجتمع الاسلامي قد تبلورت ولما خلفه ابنه نافاتا اذهلته هذه الحركة الاصلاحية ، كما انزعج لتلك الاعداد التي تدخل تباعا في الدين الاسلامي ، ولم يستطع ان يخفي الحقد على الشيخ واتباعه واصدر في لحظة غضبه مرسوما يطالب الشيخ بامور معقدة ، هدفها عرقلة الدعوة الاسلامية ، والقضاء على جهود الشيخ لنشر الاسلام وجاء في مرسومه ثلاثة امور غاية في الغرابة وهي :

اولها : الا يعظ احد الا الشيخ نفسه .

وثانيها : الا يدخل الاسلام الا من ورثه عن اجداده .

وثالثها : الا يلبس احد العمامة ولاتضرب امراة بخمارها على جبينها بعد هذا المرسوم .

كان هذا المرسوم دعوة الى السفور وخلع الحجاب والحد من نشاط الدعوة الاسلامية ، كما كان تحديا للاسلام والمسلمين الذين يزدادون مع الايام ، وكان من الممكن ان يعترض الشيخ على هذه الاوامر ، لكنه ادرك ان الطريق طويل ، وان الدعوة في حاجة الى التماسك والموازنة ، فقبل المرسوم ، وهو يعلم علم اليقين ان الدائرة سوف تحل على المشركين ، وان دعوته لرفع رايات الاسلام ستتقلص على هؤلاء الوثنيين .

وشاءت الاقدار ان يرحل هذا الحاكم قبل ان يشهد اثار مرسومه الجائر ، وتو لى ابنه يونفا وهو تلميذ الشيخ عثمان واحد الذين درسوا على يديه ، ولذا احس الشيخ بامان واستبشر الخير على ايدي تلميذه الذي الغى مرسوم والده ، وسمح للشيخ بمواصلة نشاطه في الوعظ والارشاد ، ونشر الدعوة الاسلامية .

عاد رجال الشيخ يمارسون نشاطهم ، وازداد الاقبال على دروس الشيخ ومجالسه ، واخذ بنشر الدعوة في امارات اخرى مثل زمفرا وكيب ، ومع ازدياد الاعوان ، بدا الحقد يتسرب الى يونفا الذي احس بخلوة الشيخ على ملكه وسلطانه فانقلب راسا على عقب ، وبدا يضطهد المسلمين بل وهاجم القرى المسلمة في شهر الصيام ، وقتل الناس وهم نيام ، واخذ يقبض على زعماء المسلمين ، واضطر بعضهم الى الهروب الى معسكر الشيخ خصوصا احد الاتباع المخلصين ويدعى عبد السلام ، والذي كان يونفا يسعى للقبض عليه ، والتنكيل به .

طلب يونفا من الشيخ عثمان تسليم عبد السلام ، لكن الشيخ رفض ، وازداد حنق يونفا فامر الشيخ بترك الجماعة والعيش في المنفى بعيدا عن اعوانه ، وبالطبع رفض الشيخ وفضل الرحيل بكل جماعته الى مكان يدعى جودو حيث تالفت قلوب هذه الجماعة على غير ارحام ، بل كانت لحمة العلم ورابطة الدعوة نسبا يربطهم ، ولم تكن عامل الوطنية او القومية هو الرباط بل كانوا من مختلف بلاد الهوسا هدفهم نشر الاسلام والهجرة في ارض الله الواسعة .

رد يونفا على هذا التصرف حيث طلب القبض على الشيخ واعوانه ، وحرق قرى المسلمين ، والقضاء على هذه الجماعات الخارجة عن ارادته وفعلا اخذ امراء الهوسا يتعقبونه حينما ذهب ، يقطعون الطرق الموصلة اليه ، وينهبون اموالـــه ، ويتهيأون لحربه ، وكان على اتباع الشيخ البحث عن عمل يواجهون به هذا الخطر الذي يتوعدهم وتلك الحرب لاستئصال شافتهم .

لم يجد اتباع الشيخ بدا من مبايعته على الجهاد ، وطاعة الله ورسوله ، وحمل الشيخ لقب امير المؤمنين ، واصدر وثيقة اهل السودان باعتبارها اعلانا رسميا للجهاد في سبيل الله ، واحتوت على سبع وعشرين بندا تدور كلها حول وجوب الجهاد ، ومحاربة الكفار ، وقتال البغاة ، ومن ثم انتقل الجهاد من مرحلة الدعوة السلمية الى الحرب السافرة .

وكان على الشيخ التصدي لهذا التحدي الذي استهدف القضاء على الدعوة الاصلاحية وصارت الحرب هي الفيصل الوحيد في هذا المضمار .

وبدات الحرب بين الطرفين ، وشن امير جوبير هجوما على القرى الاسلامية وتجلت شجاعة زعماء الجهاد في اكبر تحديات تواجه المسلمين في هذه الفترة ممن كفاحهم من اجل نشر الدعوة الاسلامية .

وفي اول لقاء بين الطرفين وعلى ضفاف بحيرة تابكين كوتو اطبق المسلمون - رغم قلة عددهم - على قوى المشركين وحققوا اولى انتصاراتهم ، وتوالت الانتصارات ، وصارت الحرب سجالا بين الطرفين ابتداء من عام ١٨٠٤ وحتى عام ١٨٠٨ وهو العام الذي دخلت افواج المجاهدين الى عاصمة الامارة وتدعى الكالاوا ، وقتلت يونفا واعوانه ، وسقطت الامارات الواحدة تلو الاخرى في ايدي المجاهدين ، واعطى الشيخ لاعوانه اعلاما لاعلان الجهاد في مختلف مناطق بلاد الهوسا ، ودانت له كل المنطقة ، وتشكلت لاول مرة اكبر دولة اسلامية في غرب افريقيا حتى بلغت مساحتها حوالي ١٨٠,٠٠٠ ميل مربع ، ويقطنها عشرة ملايين نسمة .

ونجح الجهاد ، وتمّ القضاء على الوثنيين وعادت المنطقة الى حكم المسلمين ، وبدا الشيخ يرسي دعائم الدولة الاسلامية الفتية ، وصارت معارك الشيخ عثمان لنشر الدعوة الاسلامية ام المعارك الاسلامية حيث صارت هذه الدعوة نموذجا لغيرها من حركات الاصلاح والتجديد في مناطق كثيرة من غرب القارة ، وحيث جاء قواد مسلمون يستلهمون من حركة الشيخ عثمان العون والمدد وقاموا بحركات مماثلة ، وصار القرن التاسع عشر في غرب القارة هو قرن التحدي والصراع ضد قوى الوثنيين ، وقوى التكالب الاوربي على افريقيا ويحدثنا تاريخ المنطقة عن زعماء الجهاد امثال الحاج عمر الفوتي التكروري في السنغال والشيخ احمدو لوبو في ماسينا ، وساموري توري في غينيا وغيرهم من زعماء الجهاد الذين وقفوا بحزم ضد القوى الوثنية ، وقوى الصراع الاوربي .

وباختصار كانت الدعوة تجربة رائعة وقدوة حسنة اقتفى اثارها كثير من حركات الاصلاح والدعوة الى الاسلام الصحيح

لقد واجه المسلمون هذه التحديات وكانت مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي وغيره من الزعماء قد ساهمت في نشر اللغة العربية ، وجعلها ينوعا المثقافة والفكر ، وصارت مناهج التعليم في معظم مناطق غرب القارة تهتم بشكل كبير بتحفيظ القرآن الكريم وتفسيره باللغة العربية ، كما ساهمت المؤلفات في شرح كل المسائل الدينية بشكل مبسط .

ظهرت الخلافة الاسلامية في هذا الجزء من افريقيا ، وحمل زعماء المسلمين لقب امير المؤمنين ، وصارت الشريعة الغراء منهاج الحياة في هذه الاجزاء ، وواصل خلفاء عثمان مسيرة الجهاد لنشر الدين الاسلامي ، وتكون مجتمع كامل ومتكامل ، وانتشر لواء الامن والسكينة في ربوع هذه المنطقة بعد ان كان منطلق السيف والحراب هو السائد في هذه الجهات ، وتعد نعمة السلام والامان من اهم اثار هذه الحركة الاصلاحية التي قضت على شبح الوثنية الذي ظل يخيم على هذه المنطقة عدة قرون ، ويكفي هذه الدعوة الاصلاحية فخرا انها حولت منطقة جهادها الى اكبر بؤرة للتجمع الاسلامي في افريقيا الغربية خاصة ، والقارة كلها بشكل عام حيث وصل عدد المسلمين في نيجيريا وحدها اكثر من ثمانين مليونا من المسلمين ، ناهيك عن ان مناطق الجهاد الاخرى التي قبلت التحدي واعلنت الجهاد قد جعلت من دولها مراكز اسلامية هامة حيث بلغ عدد المسلمين مثلا في السنغال اكثر من ٩٥٪ وفي الصومال ١٠٠٪ والنيجر ٩١٪ ، وجامبيا ٨٥٪ وغينيا ٩٥٪ ولو قارنا هذه النسب مع دول لم تشهد حركات الجهاد لوجدنا ان نسبة المسلمين تصل في انجولا مثلا ٢٥٪ وفي بتسوانا لاتزيد ٥٪ وفي غينيا الاستوائية ٣٤٪ وفي غانا ٤٥٪ ، وفي ليبيريا ٣٠٪ وفي ناميبيا ٦٪ وفي سوازي لاند ٩٪

ان هذه الحركات الجهادية الاصلاحية اقامت دولا اسلامية قوية وطبقت الشريعة الاسلامية ، وتحدت القوى الوثنية ، ووضعت نظما ثابتة للحكم والادارة ، وعادت الالقاب الاسلامية مثل الوزير والقاضي والمحتسب ، وعاش الناس في ظل نظم اسلامية قوية لم يجد المستعمر حين سيطر على هذه البلاد الا ان يبقى على هذه النظم ويطورها ويتخذها اسلوبا للحكم طوال الحقبة الاستعمارية .

لكن رغم رسوخ هذه النظم الاسلامية بعد هذه التحديات القوية نعود ونسال :

هل توقف التحدي للقوى الاسلامية في غرب القارة ؟

والاجابة طبعا بالنفي فالتحدي للدعوة لازال قائما لان الجهاد الاسلامي لازال يجابه تحديات لاتقل عنفا عما حدث من صراعات سابقة - او مذ ان خرج المسلمون من الاندلس بعد سقوط غرناطة في عام ١٤٩٢ .

استمرت موجات التحدي للقوى الاسلامية ، وبلغت هذه التحديات ذروتها طوال القرن التاسع عشر ، لكن رجال الدعوة وقفوا صامدين امام هذا التحدي ، واذا كانت حروب المسلمين قد استنزفت الكثير من مواردهم وطاقاتهم ، واقصت جانبا كبيرا من قدراتهم على الابتكار والانجاز الحضاري ، الا ان هذا لم يفقد رجال الدعوة حماسهم ولا رغبتهم في مواصلة حركة المد الاسلامي المتلهفة دوما الى الانطلاق والتحدي

وبعد ما اجوج الامة الاسلامية الى مثل هذه الحركات الاصلاحية لان افريقيا لاتزال ميدان تسابق بين القوى الخارجية ، ولاتزال الملل والنحل تسعى لكسب ارض جديدة في افريقيا ، او تثبت قدمالها على حساب الاسلام والمسلمين ، ولو عرفنا ان الكنيسة ترصد في كل عام اكثر من ثلاثة مليارات دولار من اجل عمليات التنصير في القارة ، وانها تجند اكثر من ١٢٠ الف عنصر لتقديم الخدمات للذين يعتنقون المسيحية لادركنا مدى الخطر الذي يطبق على المسلمين ، علينا ان نقف صفا واحدا لكي نتفهم هذا التحدي ومغزاه ، وان نصمد في وجه القوى الباغية وحتى نثبت اننا خير امة اخرجت للناس قولا وعملا ، وان يكون تماسكنا ايمانا منا بالخطر الذي يحيط بنا في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الاسلام والمسلمين